تفسير سورة القمر

وهى مكية

قد تقدم فى حديث أبى واقد (١) : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف، واقتربت الساعة، فى الأضحى والفطر، وكان يقرأ بهما فى المحافل الكبار، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد وإثبات النبوات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝ ﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها، كما قال تعالى: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل:١]، وقال: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] ، وقد وردت الأحاديث بذلك، روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: كنا جلوسا عند النبى ﷺ والشمس على قُعَيْقعان بعد العصر، فقال: «ما أعماركم فى أعمار من مضى إلا كما بقى من النهار فيما مضى» (٢) . وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُعِثتُ أنا والساعة هكذا». وأشار بإصبعيه: السبابة والوسطى. أخرجاه (٣). وروى الإمام أحمد عن خالد بن عمير قال: خطب عتبة بن غزوان ـ قال بهز: وقال قبل هذه المرة ـ خطبنا رسول الله ﷺ قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن الدنيا قد آذنت بصرمٍ وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صُبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يُلقَى من شفير جهنم فيهوى فيها سبعين عاما ما يدرك لها قعرًا، والله لتملؤنه، أفعجبتم ! والله لقد ذكر لنا أن ما بين مِصراعَى الجنة مسيرة أربعين عاما، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ الزحام» وذكر تمام الحديث، انفرد به مسلم (٤) .

وقوله: ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ : قد كان هذا فى زمان رسول الله ﷺ ، كما ثبت ذلك فى الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. وقد ثبت فى الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: «خمس قد مضين: الروم، والدخان، واللزام، والبطشة، والقمر» (٥) . وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع فى زمان النبى ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات. روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: سأل أهل مكة النبى ﷺ آية ، فانشق القمر بمكة مرتين ، فقال : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ . ورواه

(١) وذلك عند تفسير سورة « ق » فى أولها .
(٢) المسند (٥٩٦٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .
(٣) المسند (٥/ ٣٣٨) والبخارى (٦٥٠٣) ومسلم (٢٩٥٠/ ١٣٢) .
(٤) المسند (٤/ ١٧٤) ومسلم (٢٩٦٧/ ١٤) .
(٥) البخارى (٤٧٦٧) .

مسلم (١). وروى البخارى عن أنس بن مالك، أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقَّين، حتى رأوا حِرَاء بينهما (٢). وروى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين: فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد. فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه (٣). وروى البخارى عن ابن عباس قال: انشق القمر فى زمان رسول الله ﷺ. ورواه مسلم (٤). وروى الحافظ أبو بكر البيهقى عن عبد الله بن عمر فى قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فِلْقَتَين: فِلْقَة من دون الجبل، وفلقة من خلف الجبل، فقال النبى ﷺ: «اللهم اشهد». رواه مسلم والترمذى، وقال الترمذى: حسن صحيح(٥). وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين حتى نظروا إليه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا». رواه البخارى ومسلم(٦).

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً﴾ أى: دليلا وحجة وبرهانا ﴿يُعْرِضُوا﴾ أى: لا ينقادون له، بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم، ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أى: ويقولون: هذا الذى شاهدناه من الحجج، سحر سحرنا به. ومعنى ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ أى: ذاهب. قاله مجاهد، وقتادة، وغيرهما، أى: باطل مضمحل، لا دوام له. ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى: كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقلهم. وقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ قال قتادة: معناه: أن الخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر. وقال ابن جريج: مستقر بأهله. وقال مجاهد: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أى: يوم القيامة. وقال السدى: ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ أى: واقع.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ﴾ أى: من الأخبار عن قصص الأمم المكذبة بالرسل، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب، مما يتلى عليهم فى هذا القرآن، ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أى: ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادى على التكذيب. وقوله: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ أى: فى هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ يعنى: أى شىء تغنى النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة، وختم على قلبه؟ فمن الذى يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي (٧) الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝﴾

يقول تعالى: فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضوا ويقولوا: هذا سحر مستمر، أعرض عنهم وانتظرهم ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ أى: إلى شىء منكر فظيع، وهو موقف الحساب، وما فيه من البلاء، بل والزلازل والأهوال ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ أى: ذليلة أبصارهم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾

(١) المسند (٣/ ١٦٥) ومسلم (٤٦/٢٨٠٢) .
(٢) البخارى (٣٨٦٨) .
(٣) المسند (٤/ ٨١) .
(٤) البخارى (٣٦٣٨ ، ٤٨٦٦) ومسلم (٤٨/٢٨٠٣) .
(٥) البيهقى فى الدلائل (٢/ ٢٦٧) ومسلم (٢٨٠١) والترمذى (٣٢٨٨) .
(٦) المسند (٣٥٨٣) والبخارى (٤٨٦٤) ومسلم (٤٣/٢٨٠٠) .
(٧) فى المطبوعة والمخطوطة : « فما تغنى » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه .

وهى: القبور ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أى: كأنهم فى انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعى ﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ فى الآفاق، ولهذا قال: ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ أى: مسرعين ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾ لا يخالفون ولا يتأخرون ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أى: يوم شديد الهول عبوس قمطرير ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:٩، ١٠].

ربع

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ﴾ قبل قومك يا محمد ﴿ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ اى: صرحوا له بالتكذيب واتهموه بالجنون، ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ قال مجاهد: ﴿ وَازْدُجِرَ﴾ أى: استطير جنونا. وقيل: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أى: انتهروه وزجروه وتواعدوه: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]. قاله ابن زيد، وهذا متوجه حسن. ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ أى: إنى ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم ﴿ فَانتَصِرْ﴾ أنت لدينك.

قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ قال السدى: هو الكثير ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا﴾ اى : نبعت جميعُ أرجاء الأرض، حتى التنانير التى هى محال النيران نبعت عيونا ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أى: من السماء والأرض ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أى: أمر مقدر. قال ابن عباس: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ : كثير، لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده، ولا من السحاب؛ فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتقى الماءان على أمر قد قدر. ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والقرظى، وقتادة، وابن زيد: هى المسامير، واختاره ابن جرير، قال: وواحدها دسار، ويقال: دَسير. وقال مجاهد: الدسر: أضلاع السفينة. وقال عكرمة والحسن: هو صدرها الذى يضرب به الموج. وقال الضحاك: الدسر: طرفها وأصلها. وقال العَوْفى، عن ابن عباس: هو كَلْكَلُها.

وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أى: بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أى: جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصاراً لنوح، عليه السلام. وقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً﴾ قال قتادة: أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة. والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن، كقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:٤١، ٤٢]. وقال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ. لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١١، ١٢]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أى: فهل من يتذكر ويتعظ؟روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: أقرأنى رسول الله ﷺ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن، مُدَّكِر أو مُدَّكر؟ قال: أقرأنى رسول الله ﷺ: ﴿مُدَّكِرٍ﴾ (١). وهكذا رواه البخارى عن عبد الله قال: قرأت على النبى ﷺ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾. فقال النبى ﷺ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (٢). وعن أبى إسحاق؛ أنه سمع رجلا يسأل الأسود: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، أو: ﴿مُدَّكِرٍ﴾ ؟ قال:

(١) المسند (٣٧٥٥) وقال الشيخ شاكر :« إسناده صحيح » . (٢) البخارى (٤٨٦٩ ، ٤٨٧٤) .

سمعت عبد الله يقرأ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾. وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ دالاً. وقد أخرج مسلم هذا الحديث وأهل السنن إلا ابن ماجه[1]. وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي: كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي ولم يتعظ بما جاءت به نُذُري، وكيف انتصرت لهم، وأخذت لهم بالثأر.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه لمن أراده، ليتذكر الناس. كما قال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]. قال مجاهد: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ يعني: هوّنّا قراءته. وقال السدي: يسرنا تلاوته على الألسن. وقال ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان الآدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله، عز وجل. قلت: ومن تيسيره، تعالى، على الناس تلاوة القرآن ما تقدّم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف»[2].

وقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يَسَّر الله حفظه ومعناه؟ وقال محمد بن كعب القرظي: فهل من منزجر عن المعاصي؟ وعن مَطَر الوراق في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: هل من طالب علم فيُعان عليه؟ وروى عن قتادة مثله.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن عاد قوم هود: إنهم كذبوا رسولهم أيضا، كما صنع قوم نوح، وأنه تعالى أرسل ﴿عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾، وهي الباردة الشديدة البرد، ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ أي: عليهم. قاله الضحاك، وقتادة، والسدّي ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ عليهم نحسه ودماره؛ لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه، فيسقط إلى الأرض، فتثلغ رأسه فيبقى جثة بلا رأس؛ ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحا ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾

(١) البخاري (٤٨٧١) ومسلم (٨٢٣/ ٢٨٠) وأبو داود (٣٩٩٤) والترمذي (٢٩٣٧) .
(٢) البخاري (٤٩٩٢) .

يقولون: لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كُلّنا قيادنا لواحد منا! ثم تعجبوا من إلقاء الوحى عليه خاصة من دونهم، ثم رموه بالكذب فقالوا: ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾أى: متجاوز فى حد الكذب. قال الله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد. ثم قال تعالى:﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أى: اختبارا لهم؛ أخرج الله لهم ناقة عظيمة عُشراء من صخرة صَمّاء طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم فى تصديق صالح، عليه السلام، فيما جاءهم به.

ثم قال تعالى آمرا لعبده ورسوله صالح: ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ أى: انتظر ما يؤول إليه أمرهم، واصبر عليهم، فإن العاقبة والنصر لك فى الدنيا والآخرة ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أى: يوم لهم ويوم للناقة؛ كقوله:﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥]. وقوله: ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ قال مجاهد: إذا غابت حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا اللبن. ثم قال تعالى:﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ قال المفسرون: هو عاقر الناقة، واسمه قُدَار بن سالف، وكان أشقى قومه. كقوله:﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ [الشمس: ١٢]، ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾أى: خسر ﴿فَعَقَرَ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أى: فعاقبتهم، فكيف كان عقابى لهم على كفرهم بى وتكذيبهم رسولى؟ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ أى: فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية، وخَمَدوا وهَمَدوا كما يهمد يبيس الزرع والنبات. قاله غير واحد من المفسرين. والمحتظر قال السدى : هو المرعى بالصحراء حين ييبس ويحترق وتسفيه الريح . وقال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حِظَاراً على الإبل والمواشى من يَبِيس الشوك، فهو المراد من قوله:﴿ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور، وهى الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين؛ ولهذا أهلكهم الله هلاكا لم يُهلكه أمةً من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل، عليه السلام، فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عَنَان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها، وأتبعت بحجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ وهى: الحجارة ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ أى: خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد حتى ولا امرأته، أصابها ما أصاب قومها، وخرج نبى الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالما لم يمسَسْه سوء؛ ولهذا قال تعالى:﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ .وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ أى: ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه، فما التفتوا إلى ذلك، ولا أصغوا إليه، بل شكوا فيه وتماروا به، ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ وذلك ليلة ورَدَ عليه الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل فى صورة شباب مُرد حِسان محنَةً من الله بهم، فأضافهم لوط عليه السلام ،وبعثت امرأته العجوز السوءُ إلى قومها، فأعلمتهم بأضياف لوط، فأقبلوا يُهْرَعُون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب،فجعلوا يحاولون كسر الباب، وذلك عشية، ولوط، عليه السلام، يدافعهم ويمانعهم دون

أضيافه، ويقول لهم: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ يعني: نساءهم ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١] ، ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ اى: ليس لنا فيهن أرب ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩] ، فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول، خرج عليهم جبريل، عليه السلام، فضرب أعينهم بطرف جناحه، فانطمست أعينهم. يقال: إنها غارت من وجوههم. وقيل: إنه لم تبق لهم عيون بالكلية، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان، ويتوعدون لوطا، عليه السلام، إلى الصباح.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ اى : لا محيد لهم عنه ، ولا انفكاك لهم منه ، ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ .وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ .

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وقومه أنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالبشارة إن آمنوا، والنذارة إن كفروا، وأيدهما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة، فكذبوا بها كلها، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، أى: فابادهم الله ولم يُبق منهم مخبراً ولا عيناً ولا أثراً. ثم قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ اى: أيها المشركون من كفار قريش ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ﴾ يعني: من الذين تقدم ذكرهم ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل، وكفرهم بالكتب: أأنتم خير أم اولئكم؟ ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أى: أم معكم من الله براءة ألا ينالكم عذاب ولا نكال؟

ثم قال تعالى مخبرا عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ اى: يعتقدون أنهم يتناصرون بعضهم بعضا، وأن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء، قال الله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ أى: سيتفرق شملهم ويغلبون. عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ قال ـ وهو في قبة له يوم بدر: « أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبدا » . فأخذ أبو بكر بيده وقال : حسبك يارسول الله! ألححت على ربك. فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾. رواه البخاري والنسائي[1]. وروى البخاري عن يوسف بن ماهَكَ قال: إني عند عائشة أم المؤمنين، قالت: نزل على محمد ﷺ بمكة ـ وإني لجارية ألعب ـ ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ هكذا رواه هاهنا مختصراً [2].ورواه في فضائل القرآن مطولا[3]، ولم يخرجه مسلم.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۢ ﴿٥٥﴾﴾

(١) البخاري (٢٩١٥ ، ٣٩٥٣ ، ٤٨٧٥ ، ٤٨٧٧) والنسائي في الكبرى (١١٥٥٧) .
(٢) البخاري (٤٨٧٦) .
(٣) البخاري (٤٩٩٣) .

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم فى ضلال عن الحق، وسُعُر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب فى الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ اى: كما كانوا فى سُعُر وشك وتردد أورثهم ذلك النار، وكما كانوا ضلالاً، يسبحون فيها على وجوههم، ولا يدرون أين يذهبون، ويقال لهم تقريعا وتوبيخا: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ كقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢] وكقوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الاعلى: ١ـ٣] أى: قدر قدرا، وهدى الخلائق إليه؛ ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمةُ السنة على إثبات قَدَر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها، وردّوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات، وما ورد فى معناها من الأحاديث الثابتات على الفرقة القَدَرية الذين نبغوا فى أواخر عصر الصحابة. ولنذكر هاهنا الأحاديث المتعلقة بهذه الآية الكريمة: روى أحمد عن أبى هُرَيْرَة قال: جاء مشركو قريش إلى النبى ﷺ يخاصمونه فى القدر، فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾. رواه مسلم والترمذى وابن ماجه (١) . وروى الإمام أحمد عن نافع قال: كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكاتبه، فكتب إليه عبد الله بن عمر: إنه بلغنى أنك تكلمت فى شىء من القدر، فإياك أن تكتب إلىّ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون فى أمتى أقوام يكذبون بالقدر». ورواه أبو داود(٢). وروى أحمد عن طاوس اليمانى قال: سمعت ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : «كل شىء بقدر، حتى العجز والكيس». ورواه مسلم (٣).

وفى الحديث الصحيح: «استعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك أمر فقل: قَدَّر الله وما شاء فعل، ولا تقل: لو أنى فعلت لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان» (٤). وفى حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال له: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء، لم يكتبه الله لك، لم ينفعوك. ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء، لم يكتبه الله عليك، لم يضروك. جفت الأقلام وطويت الصحف» (٥). وروى الإمام أحمد عن الوليد بن عبادة، قال: دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت ، فقلت: يا أبتاه، أوصنى واجتهد لى. فقال: أجلسونى. فلما أجلسوه قال: يا بنى، إنك لم تطعم طعم الإيمان، ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره. قلت: يا أبتاه، وكيف لى أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك. يا بنى، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم. ثم قال له: اكتب. فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»يابنى، إن مت ولست على ذلك دخلت النار. ورواه الترمذى . وقال : حسن صحيح غريب (٦) . وقد ثبت فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض

(١) المسند (٢/ ٤٤٤) ومسلم (٢٦٥٦) والترمذى (٣٢٩٠) وابن ماجه (٨٣) .
(٢) المسند (٥٦٣٩) وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده صحيح » وأبو داود (٤٦١٣) .
(٣) المسند (٥٨٩٣) ومسلم (١٨/٢٦٥٥) . (٤) مسلم (٣٤/٢٦٦٤) .
(٥) المسند (٢٦٦٩) وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده صحيح » .
(٦) المسند (٣١٧/٥) والترمذى (٣٣١٩) .

بخمسين ألف سنة» زاد ابن وهب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود:٧]. ورواه الترمذى وقال: حسن صحيح غريب(١).

وقوله: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ : وهو إخبار عن نفوذ مشيته فى خلقه كما أخبر بنفوذ قدره فيهم، فقال: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ﴾ أى: إنما نأمر بالشىء مرة واحدة، لا نحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك الذى نأمر به حاصلا موجودا كلمح البصر، لا يتأخر طرفة عين. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ يعنى: أمثالكم وسلفكم من الأمم السالفة المكذبين بالرسل، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أى: فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك، وقدر لهم من العذاب، كما قال: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤]. وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ أى: مكتوب عليهم فى الكتب التى بأيدى الملائكة، عليهم السلام ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ أى: من أعمالهم ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ أى: مجموع عليهم، ومسطر فى صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وقد قال الإمام أحمد عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالبا». ورواه النسائى وابن ماجه (٢).

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ اى: بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر، والسحب فى النار على وجوههم، مع التوبيخ والتقريع والتهديد. وقوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أى: فى دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أى: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما شاء مما يطلبون ويريدون؛ وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو(٣) ـ يَبْلُغُ به النبى ﷺ ـ قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم وأعليهم وما ولوا». انفرد بإخراجه مسلم والنسائى(٤).

---

(١) مسلم (٢٦٥٣/١٦) والترمذى (٢١٥٦) .

(٢) المسند (٦/ ١٥١) وابن ماجه (٤٢٤٣)، وفى الزوائد: « إسناده صحيح، رجاله ثقات » ، وعزاه صاحب التحفة (١٢/ ٢٥٠) للنسائى فى الكبرى وابن ماجه ، ولكنه استدرك وقال : حديث النسائى ليس فى الرواية ولم يذكره أبو القاسم .

(٣) فى المطبوعة : « عبد الله أبى عمر » وهو خطأ .

(٤) المسند (٦٤٩٢) ومسلم (١٨٢٧/١٨) والنسائى (٥٣٧٩) .